مكية الجزء الثلاثون سورة التكوير آياتها ٢٩

سُورَةُ التَّكْوِيرِ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وجاء في مسند الإمام أحمد، والترمذي[1] من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ويكون ذلك يوم القيامة حيث أن هذه الشمس العظيمة الواسعة، تكور فيضم بعضها إلى بعضًا ثم تلقى في النار، كما يقال: كُوِّرَت العمامة، أَيْ: جُمِعَت، وإلقائها في النار هو تبكيت لعُبَّادها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٣].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ التي جعلها الله جَلَّجَلَالُهُ زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: انطمس ضوئها، وسقطت عن أماكنها قيل في جهنم؛ وما يحصل هو بسبب التغير الذي يحصل في العالم العلوي؛ لأن القيامة يلحقها تغيرات، تغير في العالم العلوي من انفطار السماء وتساقط النجوم وتكوير الشمس، وتغير في العالم السفلي قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

(١) «مسند أحمد» برقم (٤٨٠٦)، والترمذي برقم (٣٣٣٣).

ومن أوائل التغيرات في العالم العلوي: طلوع الشمس من مغربها، ومن التغيرات في العالم السفلي: ما دل عليه حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْنَا السَّاعَةَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَنْ تَكُونَ - أَوْ لَنْ تَقُومَ - السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّجَّالُ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَالدُّخَانُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ، خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ تَخْرُجُ نَارٌ مِنَ الْيَمَنِ، مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ**»(١).

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ ﴾ الثوابت الرواسي ﴿ سُيِّرَتْ ﴾ أَيْ: زالت عن أماكنها، كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ:٢٠] ويبدأ التغير بأنها تمر مرَّ السحاب، وتصبح الأرض كقرصة النقيب ليس فيها علم لأحد، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨]، ثم تكون كالصوف الذي ينفش في الهواء، تحمله الريح، ثم تكون آثارها كالسراب ثم تتبدد الرؤيا إليها، والحال كما قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٧].

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ عشار الإبل تركت وسيبت وقيل الأرض المعشرة، والذي يظهر أنها النوق؛ لأن العرب كانوا إذا صارت الإبل عشرا أحبوها وانتظروا ولدها، وهي التي تحمل في الشهر العاشر، فتعطل عن الركوب عليها، وتعطل عن الاهتمام بها، بمعنى أن الإنسان شغل عنها ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس:٣٧].

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أَيْ: جمعت الوحوش من أسود، ونمور، وجميع حيوان الغاب تحشر يوم القيامة عند بارئها، كما قَالَ النبيُّ ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»(٢)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام:٣٨]، فيجمعون في ذلك الصعيد العظيم، إلا أن الوحوش والحيوان إذا قضي بينها صارت ترابًا بخلاف الإنسان والجان.

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أوقدت بالنار وجمعها؛ لكثرتها، فمنها البحر المحيط، وهو ما يعبر عنه الآن بالمحيط الهادي، والأطلنطي، والهندي، والمتجمد الشمالي، والمتجمد الجنوبي، وهناك

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أبحر غير محيطه مثل؛ بحر العرب، وبحر قزوين الذي هو البحر الأحمر، والبحر المتوسط وغير ذلك من البحار الكثيرة، هذه البحار تسجر بالنار فتصير لهبًا عظيمًا ويذهب ماؤها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أَيْ: جمع كل صنف مع صنفه ونظيره، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨]، فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، وعباد الشمس مع عباد الشمس، كما قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا**»(١)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة:٧-١٠].

فيجتمع الناس ويتمايزون، وإذا جالس بعضهم بعضًا، وزُوِّجَ بين بعضهم بعضًا، يتمنى المجرم لو يكون بعيدًا عن هذا الشرير، كما في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَيُقَالُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ**»(٢).

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ والمؤدة: هي النفس التي تقتل قبل بلوغها، وللكفار طريقان في قتلها: إما أن يقتلوها حين الولادة، وإما أن يقتلها في سن التمييز، حتى ذكر أن بعضهم ذهب يحفر لابنته حفرة، وكان التراب يقع على لحيته، وكانت ابنته تنفض التراب من لحيته ثم يلقيها في تلك الحفرة، وهذا يدل على غلظ قلوبهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أعطى الرحمة في قلوب الحيوان، وهؤلاء يقتلون بناتهم، وكان قتلهم لبناتهم لسببين: الأول: الفقر، ولهذا السبب ربما قتلوا الولد والبنت، والثاني: خشية العار، ويكون هذا في حق البنت.

وقراءة الجمهور: ﴿سُئِلَتْ﴾ فإذا سُئِل المظلوم فكيف الظالم، وقرأ غير واحد ﴿سَأَلَتْ﴾ أَيْ: طالبت بدمها، فالشاهد أن الله يقول: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ وكذلك قاتل الموءودة يسأل عن سبب قتلها، وقد سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْعَزْلِ؟، فَقَالَ: «**ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ**»(٣).

والصحيح أن الموءودة في الجنة؛ لقول النبي ﷺ: «**فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الفِطْرَةِ**»، فَقَالَ بَعْضُ

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٤٤٢).

المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ**» أي في الجنة[(١)]، هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة، وقد اختلف العلماء، فقال بعضهم: أولاد المشركين مع آبائهم، واستدلوا بحديث: «**هُمْ مِنْ آبَائِهِمْ**»[(٢)] وهذا إنما هو في الدنيا في حال البيان؛ لكن القول الذي عليه أهل التحقيق: أن أولاد المشركين في الجنة، لثبوت النص عن النبي ﷺ.

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ أَيْ: صحائف الأعمال تنشر يوم القيامة، وفيها ما سطر من خير أو شر، فإن الأنسان لا يعمل عملًا ولا يقول قولًا إلا كتب عليه ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٣٠].

وحين تنشر هذه الصحف منهم من يأخذها بيمينه، ومنهم من يأخذها بشماله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحاقة:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء:٧١].

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ أَيْ: السماء عالية البنيان، عظمية الأركان، تزاح عن مكانها، وتتهدم أركانها، ويطويها الله عَزَّوَجَلَّ بيده ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ ﴾ سميت الجحيم؛ لبعد قعرها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»[(٣)].

﴿ سُعِّرَتْ ﴾ أُوقِدت، وأُظلِمت، وجُهزت، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٤)، عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٣)، ومسلم (١٧٤٥)، عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

﴿وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ أَيْ: قربت، كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠]، فقربها الله للمؤمنين؛ ليدخلوها ويتمتعوا بالنظر إليها، ويستأنسوا بوجودها، إذ أنهم يُكرمون حين إتيانها.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف:٤٩]، هذا هو الجواب لما تقدم، وذلك حين تكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتسير الجبال، وتعطل العشار، وتحشر الوحوش، وتسجر البحار، وتزوج النفوس، وتسأل الموءودة المقتولة، وتنشر الصحف (الدواوين)، وتكشط السماء وتطوى وتذهب، وتسعر الجحيم، وتقرب الجنة عند ذلك: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ علمته ولا تنسى منه شيئًا، كله مسطر في الكتب، والملائكة يشهدون، والإنسان ينظر إلى عمله يمنة ويسرة كما سيأتي ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار:٥] ما فعلته، وما لم تفعله، وهذا العلم يُوجب للإنسان الحسرة في الآخرة ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ [المعارج:١١-١٤]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ أَيْ: أني أقسم بالخنس، وهي النجوم حال طلوعها، وقيل غير ذلك.

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ النجوم حين تكون سابحة في السماء، ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾ النجوم عند غروبها، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بحال النجم في جميع حالاته الثلاث: عند طلوعه، وسيره، وعند غروبه، والنجم آية من آيات الله العظيمات، جعلها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاَثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلاَمَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ[1].

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» معلقًا (٤/١٠٧).

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أقسم أيضًا بالليل إذا عسعس أَيْ: إذا أدبر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ [المدثر:٣٣-٣٤]، فيقسم بالمتماثلين: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى:١-٢]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل:١-٢]، ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أقسم بالصبح حال طلوع الشمس، وقبل ذلك يتنفس ويبدأ في ظهور النور بعد الظلمة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: القرآن هذا هو المقسم عليه، ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ والمراد به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نسب إليه لأنه بلغه وهو رسول كريم، ذو أوصاف جليلة جميلة عظيمة، فإن لفظ الكرم أعم من العطاء، ولذلك رأينا أنه لا حرج في قول رمضان كريم من حيث أنه شهر الخير والبركة.

والقرآن هو قول الله، وكلامه، وإنما أضيف إلى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه بلغه، وأضيف إلى النبي ﷺ في سورة الحاقة لأنه بلغه للناس، ويزيده وضوحًا أنه قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾، والرسول هو الذي أرسل من غيره.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أَيْ: من أوصافه الرسول الكريم أنه صاحب قوة، كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦﴾ [النجم:٦] أَيْ: قوة وشدة؛ لكمال خلقته، ولعظيم شأنه، وقد رآه النبي ﷺ على خلقته مرتين وله ستمائة جناح ساد عظم خلقه ما بين السماء والأرض.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أَيْ: أن هذا الرسول عند الله، صاحب العرش، وهو العرش العظيم، العرش المجيد الذي استوى الله عَزَّوَجَلَّ عليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥] وهو أعلى المخلوقات، وأول المخلوقات، قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(١).

﴿مَكِينٍ﴾ أَيْ: أنه ممكن، مكنه الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المقدم على جميع ملائكة الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

﴿مُّطَاعٍ﴾ أَيْ: أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مطاع من جميع الأملاك، يطيعونه؛ إذ أنه يبلغهم بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[سبأ:٢٣]، وفي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ - قَالَ عَلِيٌّ: وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ - فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**»(١).

﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أَيْ: أنه متصف بالأمانة، وهذا ثناء عظيم من الله عَزَّوَجَلَّ على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي يُخَوِّنُه الرافضة والباطنية؛ بدعوى أنه دفع النبوة إلى محمد ﷺ وهي في الأصل لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وربما سلم بعضهم من الصلاة لاسيما النخاولة ومن إليهم ويقولون: خان الأمين، خان الأمين. كيف يخون الأمين؟، لا تستقيم؛ لأن الأمين لا يخون فهو أمين مؤتمن على الوحي، وعلى أوامر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أَيْ: محمد ﷺ الذي أرسل إليكم ليس بمجنون كما يزعم الكفار ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]، وقد ذهب بهم الحال أن يشيعوا هذا الكذب بين الناس، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللهَ يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ اللهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ**» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**»، قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي(٢).

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أَيْ: أن محمدًا ﷺ رأى الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ أَيْ: سادًا الأفق، جالسًا على كرسيه ما بين السماء والأرض، وهذه هي النظرة الأولى، وقد رآه مرة أخرى ليلة الإسراء، وهذا مما يدل على أن سورة التكوير كان نزولها قبل سورة النجم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).
(٢) أخرجه مسلم (٨٦٨).

[النجم:١٣-١٥]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ رآه بينًا واضحًا جليًا بصفاته.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف محمد ﷺ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: الوحي الذي نزل عليه ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل، بل إنه كان إذا جاءه الوحي علمه الناس، وبلغ دين الله.

وفي هذه الآية قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل، والقراءة الثانية: ﴿بظنين﴾ أَيْ: بالمتهم، فالنبي ﷺ لم يكن متهمًا على دينه، ولا بخيل بما أوحاه الله إليه.

وهكذا ينبغي أن يكون طالب العلم باذلًا نفسه للناس، حريصًا على تبليغهم ما جاء عن الله، وما ثبت عن النبي ﷺ، إذا أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل الرسل بالوحي، وأمرهم أن يبلغوه كما جاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب:٤٦]، قال شيخ الإسلام: فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع[1]. اهـ.

وينبغي لطالب العلم أن تكون فتواه بالدليل؛ حتى لا يتهم على دين الله.

قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أَيْ: أن هذا القرآن ليس بقول شيطان رجيم، فإن أقوال الشياطين يعتريها النقص، والاضطراب والاختلاف، وتختلط بالباطل، فلو كان قول شيطان لجاء الشياطين بمثله، أو قاربوا مثله، لكن تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨] وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣]، فعجزوا، ثم تحاداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس:٣٨].

والشيطان من شط وهو الذي خرج عن الطاعة ﴿رَّجِيمٍ﴾، ملعون مرجوم.

ثم قال لهم بعد هذا البيان العظيم مبكتًا ومحقرًا لعقولهم الكاسدة: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أَيْ: أين تعدلون عن هذا القرآن، وفيه الشفاء والبيان، ولكن حملهم الكبر على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦].

﴿إِنْ هُوَ﴾ أَيْ: هذا القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ ذكرى ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ المكلفين من الجن والإنس.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٥).

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ لمن شاء أن يدخل في دين الله، ويستقيم على شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ومشيئة العبد لا يمكن أن تقع إلا إذا شاء الله ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أَيْ: يتبع الحق ويكون على الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: مشيئة التوفيق إلا إذا شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٩٩]، ففيه دليل وإعلام أن أحدًا لا يعمل خيرًا إلا بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ العالم العلوي، والسفلي، وقيل: بأن العالمين هم الجن والإنس، وزاد بعضهم الملائكة، والصحيح أن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ عالم.

والحمد لله رب العالمين.